الحرية عند جون ديوي (عناصرها وأنواعها)

المدرس
نبراس زكي جليل
جامعة البصرة / كلية الآداب

الملخص:-

يعالج البحث مشكلة الحرية عند الفيلسوف البراجماتي جون ديوي، اذ شكلت الحرية هاجس العديد من الفلاسفة والمفكرين منذ أزمنة بعيدة ، فعمدوا إلى وضع الكثير من الحلول والنظريات لها وكان ديوي واحداً منهم ، إلا انه عزف عن الحل الميتافيزيقي – رغم إنها من اعقد المشكلات الميتافيزيقية – مشدداً على أن معناها مرتبط بالواقع الإنساني وبخبرته وتجربته المعاشة ، مؤكداً ذلك من خلال العناصر التي تحققها وهي القدرة والرغبة في العمل والإمكانيات المتجددة في العالم ، ومن ثم أنواعها التي تظهر وتتحقق في ارض الواقع والتي أبرزها الحرية الفردية والاجتماعية والتربوية .

John Dewey`s Conception of Freedom: Its Types and Elements

Lecturer. Nibras Zaki Jaleel

The college of Arts – University of Basrah

Abstract:

Freedom was a philosophical issue that has obsessed many philosphers. The pragmatic philosopher John Dewey has tackled this issue. He got rid of the metaphysical aspects of the questions of freedom, and instead emphasized its relation to human reality and experience. He discussed many kinds of freedom, like the personal, social and educational.

المقدمة:-

مشكلة الحرية من المشكلات الفلسفية المعقدة والمهمة التي خاض بها الفلاسفة والمفكرون منذ أزمنة سحيقة ، وسبب هذا التعقيد هو انها تمتلك معان وأبعاد مختلفة ، كالبعد الميتافيزيقي والفردي والاجتماعي والسياسي و الأخلاقي واللاهوتي والاقتصادي والتربوي ، فلابد من الوقوف على هذه الأبعاد المختلفة من اجل فهم معناها والإحاطة بها، وأهميتها نابعة في كونها لا تنفك عن حياة الإنسان وتفكيره فهي ملازمة له في كل لحظة من لحظات حياته ، وهو يدرك أن لا معنى لحياته بدون الحرية ، لذلك فهو اهتم بها وضحى من اجلها منذ بدايات وعيه ، معبراً عن ذلك بأشكال وصور شتى .

لقد اهتم الكثير من الفلاسفة بمشكلة الحرية وأثاروا العديد من التساؤلات وقدموا جملة من الحلول والنظريات ، ابتداءً من أساطين الفلسفة اليونانية مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو ، ومروراً بالعصور الوسطى المسيحية والإسلامية ، إذ برز في عصر الآباء تحديداً القديس أوغسطين الذي حاول ان يثبت حرية إرادة الإنسان من خلال تقديمه مجموعة من الحلول ، أما المعتزلة فقد مثلوا الفكر الإسلامي خير تمثيل بعد أن ربطوها بفكرة الله ، وفي العصر الحديث أكد رينيه ديكارت إن الحرية من الأمور الأكثر بداهة لأنها نابعة من النفس ، وقد ربط عمانؤيل كانط بين الحرية والقوانين الأخلاقية من خلال خضوعها وسير أفعالها لهذه القوانين ، وفي الزمن المعاصر هناك جملة من الفلاسفة الذين خاضوا في مضمار هذه الإشكالية أبرزهم هنري برجسون وجان بول سارتر والفلاسفة البراغماتيين .

من ابرز الفلاسفة البراغماتيين اهتماماً بالحرية هم جيمس وشيلر وديوي ، اذ بحثها جيمس سيكولوجيا وأخذت كذلك مساحة من فلسفته العملية اذ لابد ان تكون خاضعة لإرادتنا في عالم متعدد الخيارات ، أما البراغماتي الأخر فهو الفيلسوف الانجليزي فرديناند شيلر الذي أعطى للحرية قيمة عليا من خلال تعظيمه للإنسان وإعطائه مكانة مرموقة في هذا العالم ، وانصب جهده على التوفيق بين الحتمية والحرية ليثبت في النهاية أن الإنسان له قدر كبير من الحرية .

ارتبط موضوع الحرية عند جون ديوي ارتباطاً وثيقاً بفلسفته الأداتية انطلاقاً من فلسفة الخبرة لديه ، مؤكداً إن الحرية هي إشكالية واقعية تتحقق وفقاً لشروط هي : القدرة في انجاز المخططات وإزالة كل العوائق والعقبات التي تحول دون تنفيذها ، الإمكانات المنفتحة والمتجددة في العالم - والذي يتصف بالتغير والتحول والتبدل - تشكل شرطا أساسيا لأنها تجعل الفرد قادر على تغيير مخططاته وتجريب كل ما هو جديد ، وطبيعة التفاعل بين الإنسان وبيئته الطبيعية او بيئته الاجتماعية يمثل جوهر حريته ، وكل ذلك نابع من رغبة الإنسان في تحقيق ما يريده وما يصبوا إليه .

للحرية أنواع وأشكال مختلفة ابتداءً من علاقتها بالسياسة وحاجة المجتمعات إلى تغيير واقعها الثقافي والاقتصادي والتخلص من سلطة الدولة لإعادة تشكيل المجتمع من جديد وتوزيع المهام بشكل يضمن للجميع تحقيق حرياتهم بأكبر قدر وبصورة تجعل المجتمع يحقق التطور والنمو بصورته الأمثل ، وهذا ما يعكس فلسفة ديوي الاجتماعية التي تنظر إلى الفرد داخل مجتمع مترابط ومتماسك ، وفهم حرية اي فرد تتم من خلال المجتمع ومن خلال ربطها بحريات أفراد آخرين . وتشكل الحرية التربوية في فلسفة ديوي أهمية كبيرة من منطلق أن الحرية تعمل على تطوير مواهب الأفراد ، وهذا لابد ان يكون من فترة مبكرة عند الإنسان سواء كان طفلاً في بيته أو تلميذاً في مدرسته ، فتغرس وتتجذر عندهم منذ البداية لكي يدركوا إبعادها ويعلموا مدى أهميتها ، مما تنعكس فائدتها في صقل إمكاناتهم وقدراتهم ومواهبهم والتي تنصب في النهاية على خلق مجتمع حر

أولا : طبيعة الحرية

بلا شك أن الحرية Freedom[١] من المشكلات المعقدة والشائكة ، إذ شغلت مساحة واسعة من نتاج الفلاسفة والمتكلمين والمفكرين منذ أقدم العصور وحازت على أهمية كبيرة عندهم ، وتكمن أهميتها في كونها حقيقة ميتافيزيقية ومشكلة ذات بعدين : بعد نظري فيه يسعى العقل إلى إدراكها وسبر أغوارها ، وبعد عملي لأنها صفة لا تنفك عن سلوكنا العملي وطبيعة حياتنا ، وهي من هذا البعد تقع مشغلا لعلوم عدة كعلم النفس والاجتماع والسياسة والأخلاق والدين وغيرها من العلوم الأخرى .

وإذا رجعنا إلى معناها الاشتقاقي في المعاجم فإنها مشتقة من " حر ، يحر ، أحرارا وحرية على أنها قدرة الإنسان على التصرف بإرادة وخيار ، وخلص من العبودية وامتلك حق التصرف بحرية ، وهو الطليق من الناس وخيرهم وأفضلهم ، وكان بذلك حر الأصل وشريفه "[٢]، والحر في مقابل العبد وهو الكريم النقي من كل الشوائب ، وهو أفضل الأشياء وأحسنها قولا وفعلا ، والعبد الحر هو ما خلص من الرق ، وكما تطلق على الشخص ذو الأصل الشريف ، والحرية بناءً على ذلك هي الخلاص من الشوائب أو الرق أو اللؤم[٣] ، ويدل هذا التعريف على إن مفهوم الحرية يدل على معان عدة ، فهي تقابل العبودية والتبعية والقهر والضرورة [٤].

ولا يمكن أن نتوقف على تعريف محدد للحرية لان هذا المفهوم يتوقف على الحد المقابل له ، إذ توجد عدة مفاهيم يمكن أن تقابل مفهوم الحرية ، وأهمها الضرورة والحتمية والقضاء والقدر والطبيعة ، وغيرها من المفاهيم التي تعطي معاني وتعريفات أخرى للحرية [٥]. وسوف نوضح أهم وابرز معاني الحرية التي أشارت لها اغلب المعاجم والموسوعات الفلسفية .

١-المعنى العام :

يرتبط المفهوم العام للحرية بالإرادة الحرة Will of the Freedom ، ذلك من خلال إدراك أنفسنا أحرارا ، ولا وجود لأي قيود تعمل على منعنا من التصرف وفق ما تمليه علينا الإرادة ، فان أي فعل أو سلوك نقوم به نشعر انه نابع من اختيارنا ، ولا وجود لأي سلطة خارجية تفرض علينا [٦]، وهذا يمثل إنكار لمبدأ الحتمية Determinism [٧]،الذي يذهب إلى أن سلوك الإنسان ناتج من الضرورة وليس الحرية ، وبهذا المعنى يمكن أن تعرف الحرية " بأنها الأعمال التي نقوم بها والتي لا تخضع لقوانين حتمية تخرج عن سلطتنا ، أو هي مجموعة الاختيارات التي نقوم بها من تلقاء ذاتنا دون إكراه خارجي "[٨]، ومعنى ذلك إننا نمتلك القدرة على الاختيار والعمل او الامتناع عنه دون الخضوع لأي قوى داخلية او خارجية تفرض سلطانها علينا .

٢-المعنى الإسلامي والمسيحي :

برز المعنى اللاهوتي عند المسلمين لاسيما في علم الكلام ، إذ كان هناك رأيان تجاه مشكلة الحرية ، الأول يرى أن الإنسان مجبر وكل أعماله مقدرة سلفا ، والثاني يذهب إلى أن الإنسان حر يمتلك القدرة على اختيار أعماله ، وهو المسؤول الوحيد عن هذه الأعمال، وقد تبنى هذا الرأي المعتزلة الذين اعُتبروا الخصم اللدود لأصحاب الموقف الجبري ، وقد تمسكوا بموقفهم هذا انطلاقا من إن العدل الإلهي لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان الإنسان مسؤول عن كل أفعاله المنطوية على اختياره للخير أو الشر ، فحرية الاختيار للفرد هي الشرط الأساسي للعدالة الإلهية [٩] ، ولا يختص هذا المعنى بالكلام والفلسفة الإسلامية بل كان حاضرا في فكر القرون الوسطى عند الفلاسفة المسيحيين .

٣-المعنى السياسي :

أما الحرية في معناها السياسي فيمكن أن تفهم على أساس العلاقة القائمة بين الفرد والمجتمع ، وذلك من خلال منع كل إكراه يفرض على الفرد من المجتمع ، فتتجسد حرية الفرد في أن يفعل كل ما لا يمنعه القانون ، وان يرفض القيام بكل ما لا يأمره بفعله [١٠]، وهنا ندرك إن معنى الحرية هذا لا يمكن إلا أن يتخذ صبغة عملية يحققها الفرد في مواجهة المجتمع وما يفرضه من سلطة سياسية ، وخير مثال على ذلك ما عكسته الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م من إعلان حقوق الإنسان [١١]، وكما تعبر الحريات السياسية عن الحقوق المعترف بها للفرد ، وهذه الحقوق يجب أن تقيد السلطة السياسية ، لذلك يمكن أن تتمثل هذه الحرية بحرية الوعي والحرية الفردية وحرية الاجتماع وغيرها [١٢].

٤-المعنى الأخلاقي :

ونجد أن المعنى الأخلاقي للحرية يرتبط بالعمل والتصميم الذي يسبقه وعي ومسؤولية وتدبر وروية ، وينتفي معنى الحرية هنا عندما يكون العمل لا مسؤول أو صادرا عن نزوة أو جنون ، أو نابعا من ذات غير واعية ، فمفهوم الحرية هنا مرهون بمعرفة وإدراك ما يقوم به الإنسان من فعل ، بغض النظر فيما إذا كان ما يفعله خيرا أو شرا ،

الفعل هنا يصدر وفقا لمبادئ أخلاقية يقرها العقل وتقبلها الإرادة ، والفعل الحر بهذا المعنى هو الفعل الصادر عن روية وتعقل وتدبر[١٣].

٥-المعنى النفسي :

وأخيرا فان المعنى النفسي للحرية مرتبط بما هو داخلي وعميق في أغوار النفس الإنسانية ، هو شعور بحيوية واستمرار في داخل هذه النفس ، وقدرة خلاقة يتصف بها الشعور الإنساني ، إذ يتصف الفعل بأنه حر عندما يكون روحيا تلقائيا يعبر عن الشخصية ومنبعث من أعماق الذات ، فالفعل لابد أن يصدر من أعماق الذات وتكون الحرية هنا بمثابة تلقائية روحية ، تعبر عن قدرة الإنسان على الخلق والإبداع [١٤] .

ثانيا : إشكالية الحرية وحضورها عبر تأريخ الفلسفة

لمفهوم الحرية معاني عديدة كما أسلفنا سابقا ، وسوف نجد بان كل معنى يرتبط بحقبة تاريخية معينة ، كما يتجلى عند فيلسوف أو أكثر ، وأحيانا قد يبرز عند مذهب أو تيار أو اتجاه محدد ، لذلك لابد من عرض تاريخي لهذه الإشكالية والتعرف على طبيعتها ، وخصوصا عند الفلاسفة الذين اهتموا بمشكلة الحرية وأعطوها أهمية كبيرة في فلسفاتهم ، ويرى عبد الرحمن بدوي أن مفهوم الحرية قد اتخذ أشكالاً مختلفة وصورا متعددة على مدى التاريخ ، ابتداءً من العصر الهوميروسي The Homeric age في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، وبعدها عند سقراط وأفلاطون وأرسطو مرورا بالفلسفة المسيحية والإسلامية حتى الزمن الحديث والمعاصر في أوربا[١٥]، وسوف نعرض باختصار لأهم العصور وأراء ابرز الفلاسفة :

١- في الفلسفة اليونانية :

ارتبط مفهوم الحرية عند سقراط بالفلسفة الأخلاقية من خلال المعرفة ، وهذا يتجلى بجملته الشهيرة " ليس من احد شريرا بمحض إرادته ، ذلك أن كل شر لدى الإنسان يأتي من نقص في المعرفة ، والمعرفة تحرر وتوصل إلى الحقيقة ، والحقيقة سيدة مطلقة تأبى لمن وصل إليها أن يعود إلى عبودية الأهواء والنزوات " ، نلاحظ أن سقراط قد وضع

محددات أولها المعرفة التي توصلنا إلى الحقيقة ، والتي بدورها تعتقنا وتحررنا من شر الجسد وما به من شهوات ونزوات ، وتلزمنا وتجعلنا نسلك كل ما هو خير . أما عند أفلاطون فقد ارتبطت الحرية بالمعرفة من خلال تأمل النفس للخير المطلق ، إذ يمكن للإنسان أن يتحرر بالتأمل والارتقاء لعالم المعقولات الذي يمثل جوهر كل شيء ، بشرط أن يتنحى عن الحواس الخداعة حبيسة العالم المحسوس ، وعلى هذا الأساس تستطيع النفس أن تستعيد وحدتها وتصل عن طريق النظر والتأمل إلى حريتها [١٦] ، والحرية بهذا المفهوم هي الارتقاء بواسطة الجدل العقلي نحو الوجود المطلق . وقد بدأت تأخذ منحى أدق عند أرسطو ذلك لأنه ربطها بالإرادة والاختيار [١٧] ، حيث انه فرق بين الرغبة العاقلة وغير العاقلة ، فالأولى هي الإرادة أما الثانية فهي الشهوة ، والفعل الحر عنده ليس شيئا فاضلا أو صادرا عن الخير ، وإنما مصدر الفعل الحر هو وجود طبيعة الحدوث في الكون، ويقصد به الإمكان ، ويتم الاختيار بين هذه الممكنات الموجودة في الطبيعة [١٨]، وهنا يمكن معرفة الفرق بين رؤية أفلاطون للحرية ورؤية أرسطو لها ، لان الأول يرى أن الفعل الحر مرتبط بإدراك ما هو كامل ومفارق عن الواقع ، أما الثاني يذهب إلى إن الفعل الحر لا يصدر إلا من الواقع الذي يشوبه النقص .

٢- في فلسفة العصور الوسطى :

كان لمشكلة الحرية حضوراً في تاريخ الفلسفة الإسلامية وتحديداً عند المتكلمين منهم ، كما شهدت حضوراً في فكر الفلاسفة المسيحيين في تلك الحقبة ،" وقد احتلت مشكلة الحرية مرتبة الصدارة في تفكيرهم ، وان التركيبة المعقدة لحرية الإرادة دفعتهم إلى صياغة سؤال :(وهو أين يكمن ذلك العنصر الذي يقوم بالاختيار الحر؟) " [١٩] . ويعد القديس أوغسطين من ابرز الفلاسفة المسيحيين الذين حاولوا أن يقدموا الحلول لهذا السؤال ، من خلال التوفيق بين علم الله المسبق وحرية الإرادة ، إذ يقدم أربعة حلول هي : حل الضامن ، وحل قضية الإلوهية ، وحل السرمدية ، وحل تعيين الجهة ، مستنتجا من خلالها بان الإنسان يمتلك إرادة حرة تمكنه من فعل أفعال حرة كثيرة ، ، وان الله يمتلك

العلم المسبق بما يريد الإنسان فعله ، لكنه يرى إن الله يعلم إن هذه الأفعال نتاجا لحرية الاختيار والإرادة الإنسانية[٢٠].

وإذا استطلعنا تراث الفكر الفلسفي الإسلامي فسوف نجد إن أول من أثار هذه المشكلة هم المعتزلة ، من خلال ربطها بعدل الله وتوحيده ، فوجدوا إن صفة العدل ترتبط بحرية الإرادة ارتباطا وثيقا من خلال إن الإنسان يكون مسؤولاً عن أفعاله الإرادية ولا يحاسب إلا على ضوئها ، لان انتفائها سوف ينفي معها العدل الإلهي ، وان محاسبة الإنسان وتحقيق العدل الإلهي مرهون بتحقيق الحرية ، وبانتفائها لا يكون هنالك أي معنى لرسالة أو نبوة أو تكليف أو تشريع . ومن ناحية ارتباط حرية الإرادة بالتوحيد والتوفيق بينها وبين إرادة الله وقدرته ، فقد برروا بأن الله يعلم بكل شيء وعلمه أزلي ابدي ، وان قدرة الإنسان مستمدة من قدرة الله التي يستطيع بها أن يفعل ويترك ، وقد ارتبط الحساب من ثواب وعقاب بهذه القدرة [٢١] ، رغم إيمانهم بان الله قادر على منع الإنسان من إجباره وعدم تحقيق حريته من خلال فرض ظروف خارجية ، إلا أن الله أراد أن يكون الإنسان حرا ومسؤولاً عمّا يتبع هذه الحرية [٢٢] .

٣- في الفلسفة الحديثة :

مع الفلسفة الحديثة نجد أهمية الحرية تتجلى في فلسفة رينيه ديكارت ، إذ يرى بأن الحرية يمكن أن تعرف بالتجربة ، وهي في نظره من أكثر الأمور بداهة ، والحرية الحقيقية مبنية على إرادة حرة قادرة على القبول والرفض ، تنبع في أنفسنا من خلال امتناعنا عن تصديق كل ما لم نعرفه معرفة تامة ، إذ يقول في هذا الصدد " في الوقت الذي وضعنا فيه كل شيء موضع الشك ، وافترضنا فيه أن خالقنا يستخدم قدرته على خداعنا من كل وجه ، كنا ندرك في أنفسنا من الحرية ما يمكننا من الإقناع عن تصديق كل ما لم نعرفه معرفة تامة " [٢٣] ، والحرية على هذا الأساس لا يمكن أن تكون الّا أرادة استعانت بالمعرفة واختارت الحق .

ثم جاء عمانؤيل كانط وأكد أن الإرادة الحرة هي ذاتها الإرادة الخاضعة لقوانين أخلاقية ، وان طبيعة الحرية ليست خاصية تتصف بها الإرادة وفقا لقوانين الطبيعة ،

لان الضرورة الطبيعية تنافر بالنسبة إلى العلل الفاعلة ، إلا أن كانط يرى انه لا يمكن أن تكون خارج كل قانون ، بل يجب أن تكون عليه ، تسير في أفعالها وفقا لقوانين ثابتة لا تتغير ، وهذه القوانين من نوع خاص ، وتكون حرية الإرادة هي الاستقلال الذاتي Autonomies أي الخاصية التي تتميز بها الإرادة فتجعل منها قانونا لنفسها ، وهو يرى أخيرا أن القضية التي تقول بأن الإرادة في جميع أفعالها هي القانون الذي تضعه لنفسها، ليست إلا صيغة أخرى من المبدأ الذي يقول أن علينا ألاَّ نفعل فعلا حتى يكون مطابقا للمسلمة التي تتخذ من نفسها موضوعا يعد قانونا شاملا ، وهذه صيغة الأمر الأخلاقي والمبدأ الأخلاقي المطلق[٢٤].

٤- في الفلسفة المعاصرة :

يذهب الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون إلى إن الحرية هي واقعة مباشرة من معطيات الشعور في تغيره وإبداعه الدائم ، ولا يمكن أن تفهم إلا من خلال فكرة الديمومة [٢٥] Duration ، والفعل الحر في نظره يصدر عن النفس بأكملها وليس عن باعث أو قوة معينة منها ، وممارسة الحرية تتم من خلال التحرر من التصور العلمي والتصورات العامية المتأثرة بها ، والتخلص من جميع العادات العقلية والاجتماعية ، وكذلك التحرر من قيود اللغة الدارجة وألفاظها الشائعة ، وكل هذه الأشياء هي عادات خلقتها ظروف الحياة ، وبهذه الطريقة يتمكن الإنسان من النفاذ إلى مكنون نفسه ، وان يرد إلى حياته الباطنة ليتابع ديمومتها وحريتها [٢٦]، وفي كتاب بحث في المعطيات المباشرة للوعي يشبه برجسون الحرية بالإبداع الفني ، إذ قال " وباختصار نحن أحرار عندما تصدر أفعالنا عن شخصيتنا بشكل كامل ، وعندما تعبر عنها ، وتكون لديها هذا التشابه غير المحدد الذي نجده أحيانا بين العمل والفنان " [٢٧]، لان الفنان يقوم بعمل يمتاز به عن الآخرين ويترك أثراَ خاصاَ به وحده ولا يمكن التنبؤ به ، فهو يستخدم كل مكنوناته الداخلية من اجل التعبير عمّا يريده ويتطلع إليه .

وفي الفلسفة الوجودية Existentialism وتحديدا عند الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر ، نجد إن مشكلة الحرية قد ارتبطت بالوجود الإنساني ارتباطا وثيقا ، فهي في صميم الوجود الإنساني وتسبق ماهيته ، لذلك يؤكد سارتر على أن الإنسان حر وهو محكوم وراء ماهيته ومحكوم على أن يكون حرا [٢٨] ، فهو محكوم لأنه لم يخلق ذاته ، وهو حر لأنه قد صار مسؤولاً عن كل ما يفعل بمجرد أن تواجد في هذا العالم [٢٩] ، والمسؤولية هنا لا تقتصر على شخصه وإنما تشمل كل الناس ، والإنسان مختار يختار لنفسه ويختار لجميع الناس أيضا ، من خلال اختياره لذاته يختار لبقية الناس ، لان الإنسان لا يمكن أن يختار لنفسه غير الخير ، وما يختاره سوف يكون خير لكل الناس[٣٠] ، ويذهب سارتر إلى أن حرية الإنسان تكون مصاحبة دائما بالقلق ، لان الإنسان الحر لا يستطيع أن يقوم بأي عمل حر إلا ويشعر بالقلق ، الإنسان في نظره مهجور لا يعينه في اختياره أي هاد من السماء أو الأرض ، والقلق هو الشعور بالحرية ذاتها [٣١] .

ففي الفلسفة الوجودية نجد أن الحرية ترتبط بشعور الإنسان بالمسؤولية أو الاختيار أو القلق ، وان وجودها والإحساس بها يعتمد على هذه المفاهيم ، وفي حال فقدان المسؤولية أو الاختيار أو القلق فلا يكون أي معنى للحرية ولا يمكن وصف الإنسان بأنه كائن حر.

ثالثا : مشكلة الحرية في الفلسفة البراغماتية

ليس من شك بأن مشكلة الحرية قد حظيت باهتمام الفلاسفة البراغماتيين وتحديداً الأمريكان منهم ، لأنها ارتبطت بمفهوم الديمقراطية عندهم ، فأخذت مساحة واسعة في تفكيرهم وعنايتهم بوضع الحلول المناسبة لهذه المشكلة ، كما وارتبطت بمجالات مختلفة من فلسفاتهم مثل الدين والأخلاق والسياسة والتربية والاقتصاد ، وكان الأبرز من بين الفلاسفة البراغماتيين الذين خاضوا في مضمار هذه المشكلة هم : وليم جيمس ، والفيلسوف الانكليزي فرديناند شيلر ، وجون ديوي الذي شكل المحور الأساسي في هذا البحث .

١- وليم جيمس :

كان لجيمس فلسفة في الحرية مختلفة عن كثير من الفلاسفة ، من حيث إنها قد ارتبطت بأجزاء كثيرة من فلسفته ، فمن ناحية أن الحرية قد ارتبطت بمذهبه السيكولوجي في الجهد الإرادي[٣٢] ، ومن ناحية أخرى قد ارتبطت بنزعة التفاؤل الخلقي[٣٣] Meliorism عنده و القائمة على مذهبه التعددي ، والذي لا يمكن أن يقوم الا اذا كان الإنسان يمتلك حرية الإرادة ، فهو لم يقدم الحل الميتافيزيقي لمشكلة الحرية مؤكدا أن من المحال الوصول إلى إثبات الحرية الإنسانية على هذا الأساس ، لذلك أثبتها على أساس سيكولوجي ومن ثم التجأ إلى الحل العملي في إثباتها [٣٤].

ففي البحث السيكولوجي للإرادة يذهب جيمس إلى أن" الغايات الوحيدة التي تنشأ عن إرادتنا هي حركات جسمية ، تبدأ من الحكم بأن الآثار الخارجية المباشرة الوحيدة لإرادتنا هي حركات جسمية ، ويجب أن تكون الحركات الإرادية وظائف ثانوية للكائن العضوي لا وظائف أولية ، وهذه أول نقطة يجب إدراكها في سيكولوجية الإرادة ، أما الأشياء الأولية فهي الأفعال المنعكسة والحركات الغريزية والانفعالية " [٣٥]، فيفهم من كلام جيمس أن حرية الإرادة مرتبطة بحركات جسمية تصدر ابتداء عن الإنسان بشكل لا إرادي ، مما تترك في الذاكرة صورة ذهنية أو فكرة ، وعند تكرار أي حركة مرة أخرى فان الفعل الناجم عنها سيكون حينئذ فعلا حرا صادرا عن أرادة حرة ، فيكون أي فعل حر ناتج عن فكرة يتبعها حركة [٣٦]، وعلى هذا الأساس فان الإرادة الحرة لا يمكن أن تكون بمعزل عن مظاهر الحياة العقلية ، بل تعبر عن ذلك الميل الذهني- الحركي Ides- Motor الذي يدفع بالأفكار دائما إلى إنتاج مجموعة من الحركات ، فكل فعل إرادي هو نموذج لذلك الفعل الذهني الحركي ، وبذلك تكون حرية الإرادة هي قدرة الذهن على التحكم في جهده الأنتباهي[٣٧].

لم يكتفِ جيمس بالحل السيكولوجي لأنه أدرك إن مشكلة الحرية معقدة ولا يمكن أن يستوعبها مجال علم النفس وحده ، لذلك قرر أن يكون مجال بحثها في العالم الرحب ،فهو يعتقد أن لا حرية مع عالم حتمي محدد تسوده الجبرية في أدق الأجزاء ، وهذا

يستند إلى رفضه للواحدية التي تعتبر صورة من صور الحتمية ، فهو يرى " أن الواحدية قدرية والإمكانية متميزة من الضرورة من جهة ومن الاستحالة من جهة أخرى ، وهذه الإمكانية مجرد وهم في نظر الواحدية " [٣٨]، لذلك لا حرية مع عالم تحكمه الضرورة والاستحالة ، عالم حتمي يمكن التنبؤ بمستقبله ، إما الحرية التي يؤمن بها جيمس فهي لابد أن تكون مع عالم متعدد يسوده قانون اللاحتمية[٣٩] القابل لكل جدة وابتكار ، وعلى ذلك فالتعددية تقبل فكرة الإرادة الحرة [٤٠] ، وهذه الجدة تمثل إمكانيات تتيح الاختيار في مستقبل لا يمكن التنبؤ به ،وهذا ما عبر عنه بالتجريبية الأصيلة [٤١] Radica empiricism التي تتيح التسليم بالصدفة والإقرار بحرية الإرادة ، والشعور الذي يمكننا من الاختيار بين عدد غير محدد من الإمكانات ، يعتبر واقعة حادثة محددة لا تقل منزلة عن أي واقعة أخرى ، وهذا دليل قاطع لقدرتنا على الاختيار وأننا نقدم على المغامرة ونقبل على المخاطرة ومواجهة المستقبل[٤٢] ، فاللاحتمية عنده تناظر التعددية التي تمثل الإمكانات المنفتحة للاختيار ، وهذا ما ينطوي عليه المعنى الحقيقي للحرية ، وفكرة الإرادة والاختيار ملازمة لفكرة اللاحتمية والتعددية عند وليم جيمس .

٢- فرديناند شيلر :

ارتبطت مشكلة الحرية عند الفيلسوف البريطاني فرديناند شيلر بمذهبه الإنساني[٤٣] Humanism ، من حيث أن الإرادة الحرة هي صفة جوهرية للإنسان ، ولها مكان الصدارة عند الإنسان باعتباره صاحب الشأن والمكانة الأعظم في هذا الكون ، كما ارتبطت هذه المشكلة بصورة بارزة بفلسفة وليم جيمس للحرية ، وذلك من خلال دفاعه عنها ومحاولته بأن يدفع بنتائجها إلى ابعد مما انتهت إليه فلسفة جيمس [٤٤]، حيث خصص شيلر دراسته عن الحرية في كتابه دراسات في المذهب الإنساني ، وتحديدا في الفصل الثامن عشر الذي جاء تحت عنوان الحرية [٤٥].

ففي بداية هذا الفصل يرى شيلر ان المعضلة الرئيسة في الحرية تكمن في التعارض بين مفهومين هما الحتمية والحرية [٤٦]، فالحتمية هي مبدأ علمي يرى أن كل الأحداث الواقعية لابد ان تكون نتيجة لأحداث سبقتها والتي تكون علة لها ، ويمكن التنبؤ

بوقوعها من خلال معرفة الأحداث السابقة لها ، لذلك فأصحاب هذا المبدأ يثقون كل الثقة بالقوانين العلمية ويعتقدون بأنها تمثل الحقيقة . إما الحرية فهي مبدأ أخلاقي يكون الإنسان بموجبه مسؤولاً عن أفعاله ، وأدائه لأي سلوكيات هي أمراً ممكناً وليس واجباً ومفروضاً عليه ، فهو يعمل وفق اعتقاده بحرية الأفعال [٤٧].

وقد أراد شيلر ان يوفق في نظريته للحرية بين موقف الحتميين وموقف أنصار الإرادة الحرة ، اي بين مسلمة الحتمية ومسلمة الحرية ، فالحتميين رغم رفضهم لمبدأ الحرية المطلق إلا إنهم يجدون في الحياة العلمية تعبيرا عن الرغبات والنوازع الذاتية التي لا تتحقق في كثير من الأحيان ، وهم غير قادرين على تحديد مجرى الأحداث الا بقدر محدود جدا ، وفي المقابل فان أنصار حرية الإرادة لا بد من ان يحسبوا ويقدروا ويتنبئوا ، رغم اعتقادهم بأن عدم التحدد هو أمر واقع في الطبيعة ، لكنهم مضطرون الى اختيار أمر واحد من بين أموراً كثيره تعترضهم ، فيرى شيلر ان كلاهما يسلم بان في العالم ممكنات تفلت من حسابهم ، وان مسلكهم في الحياة العملية واحد ، وهم يواجهون دائما أموراَ مختلفة وواقعية في وسعهم تحديدها ، ومن جهة أخرى فأن الحرية في نظره لا تقتصر على الإنسان بل تتعداه الى موجودات طبيعية أخرى يمكن ان تتصف بالحرية ، ما دمنا نؤمن بأن العالم لا يمكن ان يكون خاضع كل الخضوع للحتمية [٤٨]، وأخيرا يقول شيلر عن التوفيق بين الموقفين السابقين " بأن الطبيعة التي كانت غير محددة او التي كانت محددة وجامدة ، تكون غير فعالة وغير مناسبة لعالمنا على حد سواء ، وللعيش في هذا العالم نحتاج درجة من التشكل ومن الذكاء الذي يجعلنا نجري تعديلات أفضل على عاداتنا والأشياء المتجددة ، ويبدو أن هذه الملكة في جوهرها هي العقل " [٤٩].

٣- جون ديوي :

اختلفت معالجة جون ديوي لمشكلة الحرية عن جميع معالجات الفلاسفة الذين سبقوه ، واقترح نظرية جديدة ليحل من خلالها هذه المشكلة التي كانت متناثرة في مؤلفات عديدة اختلفت موضوعاتها وتنوعت[٥٠] ، فقد كانت نظريته في الحرية منسجمة مع فلسفته الذرائعية ، من حيث إنها يجب أن تكون ذات منفعة وفائدة خلال حلها

لكثير من المشاكل التي تعترض الإنسان والمجتمع ، فهي" تعمل على تطور العلم والديمقراطية والشخصية الفردية في العالم الحديث ، كما تعمل على خلق مجتمع حر حقيقي متعلم "[٥١]، فهي لا بد ان تتحقق في الواقع المعاش وليس في عالم بعيد – عالم مثالي – منفصل عن واقعنا ومجريات حياتنا ، لأننا نحتاج الى الحرية في الأحداث الواقعية وفي ظلها لا بعيدا عنها ، فالطريق الى الحرية – على حد تعبيره – يمكن ان يوجد في ذلك النوع من معرفة الحقائق الذي يساعدنا على استعمالها مرتبطة بالرغبات والأهداف [٥٢]، وهنا إلى حد كبير قد تأثر بوليم جيمس في طريقة حل هذه المشكلة ، إذ لم يقدم أي حلول ميتافيزيقية[٥٣] كما فعل جل الفلاسفة والمفكرين الذين اهتموا بتقديم حلول لهذه المشكلة عبر تأريخ الفكر الفلسفي ، بل أراد أن يكون الحل المقدم نابع من الواقع المعاش ومن تجربة الحياة اليومية .

ففي مستهل كتاب الحرية والثقافة Freedom and Culture يطرح ديوي جملة من الأسئلة تخص جوهر موضوع الحرية ، والتي أثارها كثير من المفكرين والفلاسفة عبر العصور ، محاولين الإجابة عنها بقدر الانسجام مع رؤاهم واتجاهاتهم ونزعاتهم الفلسفية، إذ يبدأ ديوي متسائلا عن الحرية قائلا " ما الحرية ؟ ولما يقدرها الناس هذا القدر العظيم ؟ فهل الرغبة فيها أصيلة في الطبيعة البشرية ، أم هي ثمة أحوال خاصة ؟ وهل يرغب الناس فيها من حيث هي غاية في نفسها ؟ أم يرغبون فيها من حيث هي وسيلة للحصول على أشياء أخرى ؟...الخ ، إلى أن يقول ديوي ، وهل الحرية ومن حيث ما يترتب عليها تبدو هامة أهمية اطمئنان المرء إلى وسائل عيشه ؟ مثل الطعام والمأوى والملبس ، بل ومثل اطمئنانه إلى الاستمتاع بوقت طيب يقضيه في اللهو والقطف "[٥٤].

بعدها ينتقل إلى طائفة أخرى من الأسئلة ذات طابع اجتماعي ولها علاقة بالأرض والحضارة الأمريكية ، اذ يقول " هل عني بها قوم – أي الحرية – بمثل ما عنينا نحن في هذه البلاد الأمريكية ؟ وهل ثمة حقيقة ما في الفكرة القديمة التي تقول بأن القوة الدافعة في التاريخ السياسي لم تكن غير ما بذل الرجل العادي من جهود في الحصول على حريته ؟ وهل كان أساس كفاح الأمريكان في الحصول على استقلالهم هو الرغبة

الصادقة في الحرية حقا ، أم كان ثمة طائفة من المتاعب ضاقوا بها ذرعاً ، فعزموا أمرهم على التخلص منها ؟ ... إلى أن يقول وهل يفرط الناس في حرياتهم ويتنازلون عنها ، إذا ما استقر في نفوسهم أنهم يحصلون بذلك على الرضا الصادر عن الإحساس بالاندماج في غيرهم ؟ وعلى احترام الناس إياهم ، ذلك الاحترام الناجم عن تلك القوة التي يخلقها التضامن " [٥٥].

يعتقد ديوي انه من الصعوبة الإجابة عن الأسئلة السابقة ، لأنها تكمن في التداخل بين ما هو فردي وما هو اجتماعي ، فمن يحاول أن يجد إجابة مقنعة عن هذه الأسئلة ، عليه أولا أن يكون ذا اطلاع واسع على علم النفس ، وسبر أغوار الطبيعة البشرية من جهة ، ومن جهة أخرى لابد أن يكون ملما بعلم الاجتماع ومعرفة القوى الاجتماعية التي تسير الفرد وتنظمه [٥٦]، وهكذا فأن كل فيلسوف يحاول الخوض في معترك هذه الإشكالية ، لابد أن يضع نصب عينيه هذه الأسئلة وغيرها ، وان لا يحاول إدراكها وفهمها والإجابة عنها فحسب بل التغلب عليها والخوض في غمارها .

رابعاً : عناصر تحقيق الحرية عند ديوي

يعتقد ديوي ان هنالك ثلاثة عناصر أساسية لتحقيق الحرية ، وبدونها لا يمكن ان يكون لها معنى او توصف بأنها حرية موضوعية تتحقق في ارض الواقع ، وهذه العناصر هي :١- القدرة في العمل وتنفيذ كل المخططات مع اجتياز جميع المصاعب والعقبات . ٢- الإمكانيات الجديدة والقدرة على تنويع المخططات وتغيير مجرى العمل وتجربة كل ما هو جديد . ٣- قوة الرغبة والاختيار على أن يصبحا عاملين أساسيين في الأحداث[٥٧].

١- القدرة في العمل :

تعني القدرة في العمل The Ability of the work هي الاستطاعة والتمكن من تنفيذ العمل والمخططات ، وهذا عنصر أساسي في تحقيق الحرية لا يمكن الاستغناء عنه ، وتعتمد هذه القدرة أساساً على الذكاء [٥٨] Intelligence لأنه يعد – بنظر ديوي – مفتاح الحرية في العمل ، فعند استثمار الظروف بالشكل الصحيح يساعد ويمكن من القدرة على التقدم بنجاح ، علاوة على تشكيل ورسم مخطط يسجل تعاون هذه الظروف

واتفاقها معه ، فيؤكد ديوي على مساعدة الظروف والحظ ، إذ لا يمكن تجاهل المساعدة التي تقدمها الظروف وان الحظ غالبا ما يكون بجانب الذكي ، وعندما تهبط هبات القدر فانها تمضي سريعاً إلا عندما ينظمها التكيف الذكي للظروف ، وفي الظروف المحايدة والمعارضة نجد أن الدراسة والتنبؤ هما الطريقان الوحيدان المؤديان إلى العمل الذي لا يعوقه عائق [٥٩].

وبعد أن أكد ديوي على حقيقة ان الحرية لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال العمل والتخطيط ، رفض أن تكون هنالك حرية ميتافيزيقية Metaphysical Freedom بعيدة عن العمل ، لأنها تؤدي إلى إضعافه وتعطيله ، إذ يقول ان " التصميم على حرية ميتافيزيقية للإرادة نجدها في ذروتها عند أولئك الذين يحتقرون المعرفة المتعلقة بالأمور الواقعية ، وهم يدفعون ثمن احتقارهم تعطيلاً وحصراً للعمل ، فتعظيم الحرية بصفة عامة على حساب القدرات الايجابية – خاصة – قد ميز بها في كثير من الأحيان العقيدة الرسمية للحرية التاريخية " [٦٠]، نجد هنا أن الحرية الواقعية Realism Freedom التي امن بها ديوي ، عكس الحرية الميتافيزيقية لان الأولى تؤدي إلى زيادة في القدرة والكفاءة في العمل مما يؤدي إلى الانسجام بين الإنسان وبيئته الطبيعية ، بينما الثانية تؤدي إلى الانفصام بينهما مما يخلق تعطيلاً وتجميداً للعمل ، فهو بذلك لا ينظر إليها على أساس ميتافيزيقي ، بل هي نظرة واقعية في خضم التجربة الإنسانية .

فالحرية التي يؤكدها ديوي لا يمكن أن توجد إلا مع وجود القدرة في العمل والتمكن من تنفيذ المخططات ، والتغلب على كل العقبات والمصاعب التي تحول دون تنفيذها وتحقيقها ، " وهذا ما يثبت الطبيعة الموضوعية للحرية واعتمادها على اتساق البيئة مع الحاجات الإنسانية ، وهذا الاتفاق يمكن الحصول عليه بالتفكير العميق والتطبيق المتتابع ، لان الحرية كحقيقة تعتمد على ظروف العمل التي تقوم على أسس اجتماعية وعلمية " [٦١]، لا على أسس ميتافيزيقية متعالية على كل ما هو واقعي وطبيعي ، لان الإنسان لا يمكن أن يحقق حريته في معزل عن بيئته الطبيعية والاجتماعية ، فكل تخطيط وعمل لابد ان يكون ضمن سياق البيئة.

٢- الإمكانيات الجديدة وتنويع المخططات :

يرى ديوي بأن التجديد والمخاطرة والتغيير هي مكونات للحرية التي يرغبها الإنسان ، والتنوع هو جوهر الحرية بل هو الذي يؤدي إلى ظهور الاختلاف بين الحر والمستعبد ، ويقول إن الفضيلة الثابتة هي كالرذيلة لان الجوهر الحقيقي يتغير مع الظروف ، والحرية الحقيقية مرتبطة بقدرة الشخص في التغلب على أي صعوبات جديدة وقهرها ، وذلك يرتبط بالإمكانيات المتغيرة التي لم تتحقق [٦٢]، فعنصر الإمكانيات الجديدة والمنفتحة ضروري لتحقيق الحرية ، كما انه يرتبط ارتباطا وثيقا بفلسفة ديوي التجريبية ، من حيث إنها تعتمد على التغيير والتجديد والصيرورة في العالم ، كما أنها ترفض كل سكون وثبات ، إذ لا يمكن الاعتماد على الحقائق الثابتة والمتعالية ، بل لابد من الركون إلى الحقائق الموجودة في هذا العالم المتغير والتي نكتسبها عن طريق الخبرة والتجربة ، فالخيارات هنا تعتمد على التغيير في العالم ، ولولا تنوعها وتنوع الإمكانات لما كان هنالك أي معنى للحرية .

لا يمكن أن يكون العالم ثابتاَ ساكناَ ومستقراَ في نظر ديوي ، لان ذلك سوف يتنافى كلياَ مع فكرة الحرية ، وهذا ما آمنت به النظريات التقليدية حسب ديوي بأن " الطبيعة ثابتة تماما والعقل مفتوح وفارغ تماما ، فإذا كان العالم قد تم خلقه وإذا كانت الطبيعة قد تحققت تماما ، فسلوك العالم سوف يكون مشابها لسلوك الرجل الذي فقد نفسه ، فان الحرية الوحيدة التي يتطلع إليها الإنسان هي حرية الكفاية في العمل " [٦٣] ، فمنها حوادث العالم خاضعة لقانون وأسبابها مقدرة من قبل ، وذلك لان الأشياء ظهرت إلى الوجود بطريقة سببية ، لكن ديوي أكد على أن الأشياء لها شخصيتها التي لا يمكن أن تكون ثابتة ومحققة إلى ابعد مدى ، حتى الأصغر منها مثل الذرات والجزيئات تبدي تفضيلاً في اختيارها وسلوكها في مجال عملها ، لذلك فان وظيفة القوانين العلمية في نظره لا تنحصر فقط في بيان العلاقات بين الأشياء وإنما يجب أن تشمل أيضا إيضاح العناصر الفردية التي تميز الأشياء بعضها عن بعض[٦٤] ، فقوانين الطبيعة لا تطبق على كل الوجود بشكل عام ، بل هي مسائل إحصائية في طبيعتها ، وان كثير من القوانين لم

تكن إلا بيانات عن المتوسط Average data الموجود في مسالك عدد كثير من الأشياء ، التي لا يمكن ان يوجد فيها اثنان متطابقان مطابقة دقيقة ، لذلك فأن ديوي قد أكد في مسألة العلاقة بين القانون العلمي والحرية ، بأن الانتظام والتشابه بين الظواهر الطبيعية لا يمنع من حرية الاختيار ، رغم إنها صيغت بقوانين علمية ثابتة ، فيمكن ان يقال بأن العلم يعالج العلاقات القائمة بين الأشياء وليس الأشياء في تفردها [٦٥] .

رغم ما تقدم فأن الحرية في نظر ديوي لا يمكن أن تكون في معزل عن الإنسان ، لأن جوهرها يتعلق بالإنسان في علاقته وارتباطه بالعالم ، فلا ينظر إليها بفصل الإنسان عن العالم إنما من خلال التفاعل المستمر الذي لا ينفك أبدا بينهما ، وأساس هذا التفاعل هو المداولة الفكرية[٦٦] Intellectual Deliberation التي يثيرها الإنسان والتي تعمل على الاختيار وتشكيل المستقبل[٦٧]، وهذا المنهج الذي سلكه ديوي للتعبير عن فلسفته من خلال إقراره بالتفاعل بين الإنسان والطبيعة ، ورفضه الدائم لأي شكل من إشكال الثنائيات مثل ثنائية عقل وجسد او فرد ومجتمع أو علة ومعلول أو دافع واستجابة أو وسيلة وغاية . . . الخ .

وانسجاما مع ما يؤمن به ديوي من تفاعل بين الإنسان والعالم ، فأن كل ما يحدث من تغير وتجدد وشك وعدم يقين وتردد ومصادفة ، كل ذلك لا يقتصر فقط على الخبرة الإنسانية بل هي حقائق موضوعية موجودة في العالم لا يمكن إنكارها ، كما أن حياة الإنسان نفسه من الناحية التجريبية ما هي إلا مجموعة من الحقائق الطبيعية ، ذلك لأتصالها الدائم والمستمر الذي لا ينقطع بالطبيعة ، ومن المؤكد أن تُعبّر الأمور غير المحققة في حياة الإنسان عن تراكم الحقائق في الطبيعة ، لذلك فأن المبادرة والتجريب والتجديد والابتعاد عن الروتين ، كل تلك الأشياء من الناحية العملية هي مظاهر تجربة وممارسة حقيقية للأشياء ، وهي ذات قيمة للإنسان من ناحية إنها تمثل جوهر الحرية ، لان الرجل الحر في نظر ديوي هو الذي يفضل عالماً منفتحاً يجرب فيه كل شيء ، على عالم مغلق يتوفر فيه كل ما يريده [٦٨].

٣- الرغبة في العمل :

تعرّف الرغبة بأنها الدافع الشعوري أو اللاشعوري لبلوغ هدف ما[٦٩]. لذلك فهي لابد أن تدفع الإنسان إلى الأمام والتقدم إلى تحقيق هدف مطلوب ، وقد أوضح ديوي بأن الرغبة يجب ان تكون مرتبطة بالعوائق والعقبات التي يواجهها الإنسان في مسيرة حياته ، إذ يصفها ديوي بأنها " نشاط يموج ويطغى حتى ينفذ من السدود التي تقام في طريقه ، والهدف الذي يظهر في التفكير على انه غرض الرغبة هو هدف البيئة الذي يعمل على إعادة البناء والتوحيد للنشاط " [٧٠]. وقد أكد ديوي على قوة الرغبة وجعلها عنصرا أساسيا في قيام الحرية ، من خلال جعل الرغبة لا تقتصر على الإرادة وحدها ، بل يجب أن تكون الإرادة والنشاط يعكسان العالم ، بمعنى إمكانيات مفتوحة في العالم ، يقول ديوي " إن التنبؤ بأنواع الاختيار الموضوعية والقدرة على اختيار واحد منها عن طريق المداولة الفكرية ، لنستطيع بذلك ان نزن فرصته في الكفاح في سبيل وجوده في المستقبل، هما مقياس حريتنا " [٧١]. فالرغبة عنصر لا يمكن الاستغناء عنه في الحرية من خلال تحقيقها في الخارج ، في عالم منفتح ومتعدد الإمكانات ، يكون اختيارنا فيه منصب على مستقبل رحب غير محدد ولا مشروط .

والرغبة مرتبطة بالنتائج وبما تقوم به من عمل مميز ، وهي لذلك تقدم لنا كل سيطرة على الإمكانيات المستقبلية التي تكون مفتوحة أمامنا [٧٢]، وتبرز أهميتها هنا من حيث هي وسيلة حركة النفس ناحية بعض الأشياء التي اهتمت بها ، ولا توصف هذه الحركة على أنها مجرد تحقيق أهواء شخصية فحسب بل هي منطوية أيضا على تحقيق مصالح الأخر، فهنالك إثرةٌ وإيثار تحكمان وتوجهان الرغبة ، وهما نزعتان واستعدادان مكتسبان وليسا فطريان ، وأنهما يعكسان درجات متفاوتة من الأهمية في العالم ، فلا يمكن أن يتعارضان أو يتصادمان مع بعضهما بل يكون الواحد مكمل للأخر ، والرغبة تتحرك وفق استجابات مباشرة لما يقتضيه الموقف ، اخذين بنظر الاعتبار كل ما يحقق السعادة والمصالح الفردية ، وما يحقق سعادة ومصالح الآخرين ، اذ هو توازن بين عنصرين لابد ان يتحقق لكي يحقق اكبر قدر من السعادة والحرية [٧٣].

ومن جهة أخرى فقد ربط ديوي بين القانون الضروري والحرية من خلال الرغبة ، وهنا لا يمكن أن تكون القوانين الضرورية حتمية ومنافية للحرية ، ولكن عندما نستخدم الضرورة لتغيير أخرى وعندما يكون للقانون وظيفة أخرى وهي التنبؤ بالنتائج من خلال المعرفة والذكاء ، وعلى هذا الأساس يجب ان يكون استخدام المعرفة القانونية لتنفيذ الرغبة وليس الخضوع لها ، لان مع الرغبة يعطي قوة ويحقق الحرية ، وعكس ذلك أي الخضوع لها دون عمل ابعد من ذلك هي الضرورة و القدرية بعينها حسب ما يعتقد به ديوي ، فالقوانين لا يمكن أن تكون مثالية ومتعالية على الطبيعة ، هي في سياق الطبيعة وجزء منها ، تتعاون مع الرغبة والقدرة الإنسانية . وفي الختام يرى ديوي بأننا لا نستخدم الحاضر للسيطرة على المستقبل ولكننا نستخدم التنبؤ بالمستقبل لتغيير النشاط الحاضر وامتداده [٧٤]، فالقوانين لا يمكن أن تسبق التجربة وان تكون قبلية ومتعالية عليها ، لان ذلك يمثل حتمية القوانين التي تتعارض مع الحرية وتمثل ضرورة تنافي كل شكل من أشكال الحرية ، بل لا بد أن تكون تلك القوانين بعدية نابعة من التجربة نفسها ، وتوصف بأنها متغيرة لكي تنسجم مع الإرادة والرغبة الإنسانية التي تتمخض عنها في النهاية حرية حقيقية .

خامساً : أنواع الحرية عند ديوي

يرى ديوي أن للحرية أنواع مختلفة تظهر في المجتمعات الإنسانية ، من ابرز تلك الأنواع هي الحرية الفردية والحرية الاجتماعية ، وهذان النوعان قد شهدا صراعاً طويلاً عبر التأريخ ، إذ انبثق عن هذا الصراع مظاهر أخرى للحرية أهمها الحرية السياسية والحرية الدينية والحرية الاقتصادية والحرية النفسية والحرية التربوية ، وسوف نقتصر على أبرزها وهي الحرية الفردية والحرية الاجتماعية والحرية التربوية .

١- الحرية الفردية :

الحرية الفردية هي إرادة فردية تعمل على اختيار الفعل وتحمل مسؤوليته ، والاختيار قائم على تدبر وروية والقدرة على عدم اختيار ما يناقض الفعل ، وهي على هذا الأساس لا يمكن أن تكون مصطلحاً فلسفياً مجرداً كما وصفها روكر[٧٥] ، بل هي فرصة حيوية

وملموسة تسمح لكل إنسان ببلوغ تطور لجميع قدراته وإمكاناته ومواهبه التي وهبته الطبيعة إياها ، وجعلتها متاحة لكل أفراد المجتمع[٧٦]، فالحرية بهذا المعنى لا يمكن الا ان ترتبط بكل ميادين الحياة ، لأنها مطلب عملي للفرد يريد تحقيقه على كافة الأصعدة ، واذا ارتبطت بما هو سياسي واجتماعي فأن الفرد لابد ان يتمتع بكافة الحقوق ، وهذا يتم من خلال تحديد سلطة الدولة وتقييد هيمنتها والحد من فرض القيود على الأفراد .

أذا رجعنا إلى التاريخ وبحثنا عن أهم الفلاسفة والمفكرين الذين اعتنقوا هذا الرأي ودافعوا عنه وكان لهم الفضل الأكبر في نشره ، سوف نجد أنهم تركزوا في كل من فرنسا وبريطانيا ، ففي فرنسا برز كل من مونتسكيو وفولتير وروسو ، وقد انطلق أيمان هؤلاء المفكرين بالحرية الفردية من باب الشرعية التي يمتلكها الشعب ضد الحكومة الطاغية ، من خلال قيام الثورات على الحكومات من اجل تحقيق العدالة ورفع الظلم عن الشعب ، بينما نجد في بريطانيا أشهر من دعا إلى هذا الرأي هم بنثام وسميث ومل ، اذ نجد في كتاب الأخير" حول الحرية " أفضل تمثيل لهذا الرأي ، اذ طالب بالحريات المجسدة للفرد منها حرية المعتقد والفكر والصحافة ، علاوة على حرية عقد الاجتماعات وتأسيس الأحزاب ، وجميع هذه الحريات هي بمثابة حقوق ينتزعها الفرد من السلطة لتخفف عنه قسر المجتمع ، وهي في جملتها تشكل الحقوق المدنية والسياسية للفرد[٧٧]، والحرية لا تتحقق إلا إذا تمتع الفرد بجميع حقوقه وامتيازاته ، ويتم ذلك عن طريق تقليص سلطة الحكومة وإنهاء هيمنتها على الأفراد .

إن الفكرة الرئيسة التي تعطي الأولوية للحرية الفردية نابعة من إن الفرد في الوجود اسبق من المجتمع او الدولة ، لهذا تكون حريتهم هي الدعامة الأساسية لجميع الحريات الأخرى ، فالأفراد قد اجتمعوا في فترة من فترات التاريخ الماضي بمحض إرادتهم وتعاقدوا فيما بينهم على إنشاء الدولة والحكومة ، لغرض القيام بخدمة مصالحهم والمحافظة على حقوقهم المكتسبة وبخاصة حق التملك ، وبذلك يكون للأفراد حقوق والتزامات ، وإذا تنصلت الدولة عن كل ذلك وجب على الأفراد أن يثوروا ويهدموا كيانها [٧٨]، فيصبح من حق وواجب الأفراد استلام زمام الحكم ، ومن ثم إنشاء حكومة يديرها ممثلون حقيقيون

عن الشعب الثائر ضد هذه السلطة ، لغرض إيجاد دولة ومجتمع تنتفي فيه الطبقية والتسلطية [٧٩] .

لقد أعطى ديوي لهذا النوع من الحرية أهمية خاصة وأكد بأنه لا يمكن التخلي عنها ،" لان الإنسان في نظره يمتلك حرية طبيعية Natural Freedom تعمل على تحقيق الانسجام بينه وبين ظروفه المحيطة ، دون الحاجة الى مؤسسات الدولة والتنظيمات الاجتماعية وكافة مرافق الحياة الأخرى التي تعمل على تنظيم الأفراد والمجتمعات ، وبهذا المعنى تكون الحرية الطبيعية سابقة على الحرية السياسية وشرطاً لها "[٨٠] . والحرية الفردية هي قوة يمكن من خلالها تغيير السلطات والأنظمة الحاكمة وخصوصا تغيير الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية والدينية ، فالصراع على الحرية جاء ثمرة مطالبة الفرد بحريته من استبداد وسلطة الدولة والكنيسة ، وقد تم الانتصار عليهم وظفر الفرد بحريته ، هذا ما جعل ديوي يربط الحرية بشكل عام بالحرية السياسية ، وان حل المشكلة عنده لا يكون بفصل دائرة السلطة عن دائرة الحرية ، بل في كيفية الجمع بينهما والخروج بوحدة جديدة تمزج بينهما [٨١]، فهو بذلك ربط بين السلطة والمجتمع لانه اعتبر ان السلطة هي أساس ثبات الأنظمة الاجتماعية ، فمن خلالها يتم التنظيم والتدبير وتوزيع مهام الأفراد في الدولة حسب الإمكانات والقدرات التي يمتلكونها .

وقد ربط ديوي بين الحرية الفردية والذكاء وكافة الأنشطة الأخرى حيث قال : اذ تعني الحرية بالنسبة للفرد ، النمو والاستعداد لأجراء التعديلات أينما كانت هنالك حاجة لأجرائها ، تعني عملية ايجابية نشطة تسمح للطاقات بالتحرر والانطلاق ، كما يتوقف استقرار المجتمع وقوته على ما يمتلك إفراده من حريات وكسرهم لكل التقاليد السائدة والمألوفة فيه ، ويتم ذلك عن طريق عمل الأفراد بأقصى ما يمتلكون من طاقات وإمكانات خلاقة ، والتي قد تسمح ببعض حالات الانحراف والفوضى وعدم الانتظام التي تصاحب دائما اتساع نطاق الحرية التي لا تنطلق طاقات الأفراد بدونها ، فهي المحفز والداعم الأول لهذه الطاقات ليس المهم دائما تجنب الأخطاء الاجتماعية والعلمية وإنما

السماح بحدوثها في ظل ظروف تحقق الاستفادة منها في تنمية الذكاء الإنساني في المستقبل[٨٢] .

٢- الحرية الاجتماعية :

ارتبطت الحرية بالتأريخ السياسي للمجتمع الإنساني وخصوصا التاريخ السياسي الأوربي European Political History ، فمن الحضارة اليونانية مرورا بالعصور الوسطى ووصولا الى الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، نجد في تلك الحقب التاريخية فلاسفة من ضمنهم أفلاطون وهيجل وكروتشه ، كان لهم موقفً من الحرية يختلف عن الأول ، الحرية الحقيقية في رأيهم لا يمكن ان تتحقق الا عندما يكون الفرد خاضعا لسلطة ، والفرد لا يكون أنسانا ما لم يكون جزءاً من مجتمع له تقاليده وقيمه وعاداته ولغته الخاصة به ، وهذا لا يتم الا اذا كان الفرد خاضعا لدولة معينة [٨٣]، اذ يصف ذلك بقوله " التنظيم والقوة الذي تمارسه السلطة ، الذي يتم خلال الوسط الاجتماعي الذي يعيشه الأفراد ، وهو يرفض ويعادي كل التغيرات التي يحاول الأفراد صنعها في المجتمع " [٨٤]. وقد أعطى ديوي للتنظيم الاجتماعي أهمية كبيرة وشدد على خطورة الحرية المفرطة للأفراد ، والتي يتبعها في كثير من الأحيان الفوضى والإرباك للمجتمع ككل ، فالسلطة تعزز وحدة الأفراد في المجتمع من خلال الخضوع لقوانين الدولة ، لذا فهو يصف الأفراد كأعضاء الجسم الواحد يسند بعضهم بعضا ويؤثر البعض على البعض الأُخر ، يتعاونون ويتبوءون مراكزهم كل حسب اختصاصه وكفائته ، ويؤكد انه من غير الممكن فصل ما هو اجتماعي عمّا هو فردي ، والحرية الفردية هنا تعتمد على نوع هذا التنظيم وبدونه لا تتحقق الحرية .

وفي كتابه الفرد قديما وحديثا Individualism old and new يوضح ديوي أهمية وضرورة المجتمع وكيفية اندماج الفرد فيه ، فيقول في هذا الصدد " المجتمع ليس الا علاقات تربط الأفراد بعضهم ببعض بهذا الشكل او ذاك ، كما ان جميع العلاقات هي تفاعلات مترابطة متحركة لا قوالب ثابتة ، وتتضمن التفاعلات الضمنية المترابطة التي تؤلف مجتمعا بشرياً ، تبادل الأخذ والعطاء في المشاركة وفي الإسهام الذي يضاعف من

قدرة العوامل المتفاعلة ، ويعمقها ويوسع من أهميتها "[٨٥] فيؤكد ديوي على طبيعة وشكل العلاقات القائمة بين الأفراد ، اذ تتوقف فاعلية وقدرة المجتمع على نوع هذه العلاقات ، وهو لم يجعل الفرد موضعا للاهتمام والعناية دون اهتمام بدوره في الحياة الاجتماعية ، ولم يهتم بالمجتمع دون الاهتمام بما يوفره ذلك المجتمع من فرص كاملة ومتساوية لجميع أفراده للتعبير عن إمكانياتهم وقدراتهم الفكرية والمادية ، فالحرية الفردية لا يمكن فهمها وتحقيقها الا من خلال المجتمع .

والحرية بمعناها الاجتماعي Social freedom تتحقق من خلال إعادة النظر في قضية توزيع أفراد مجتمع من المجتمعات في وقت ومكان معينين ، لغرض وضعها على أسس جديدة ، والحرية تستند في وجودها الى أجراء عملية تغيير في كمية حصص الأفراد والجماعات التي تكون ذلك المجتمع من حيث حقوقها وواجباتها بالنسبة لبعضها ، فتزداد حرية بعض وتنقص حرية البعض الاخر ، من حيث عدد مجالات ظهورها ومن حيث سعة كل مجال منها ، فهنالك أشخاص تزداد حرياتهم بينما نجد آخرين تتقلص حرياتهم ، فالذين تزداد بإمكانهم ان يفعلوا أشياء لا يمكن ان يفعلها الآخرون الذين تتقلص حرياتهم[٨٦] .

وهكذا لا يمكن ان تفهم الحرية بعيدة عن المجتمع ، لأنها لا تتحقق بالإفراد كأفراد معزولين عن المجتمع ، وإنما كأفراد منصهرين في علاقات وأواصر اجتماعية متينة ، معتمدين على بعضهم البعض ، " وكلما ارتقى المجتمع سلم التطور الثقافي ازدادت درجت ذلك الاعتماد ، وأصبحت أعمال الفرد وآراؤه ذات اثر كبير في غيره من الأفراد ، فحرية الفرد في القول وفي العمل متعلقة بحرية غيره اشد التعلق ، واذا وقفت مؤقتا حرية فرد معين في محل ما تحت ظروف معينة ، فأن ذلك يعني بدء تحرك فرد أخر او أفراد آخرين"[٨٧]. فالحرية بناءاً على ما تقدم لا يمكن ان تفهم او تتحقق إلا من خلال المجتمع وتركيبته ، كما وان حرية اي فرد في المجتمع يجب ان تكون متوقفة على أفراد آخرين ، والمحافظة والبقاء على هذه الحرية يجب ان تكون مصحوبة بشروط أهمها الخضوع لقوانين الدولة ، والتي بدورها تنظم المجتمع وتحافظ على حريات الأفراد ، وخضوع

الأفراد للحكومة هو شرط من الشروط للحصول على قدر اكبر من الحرية ، ويقل مقدار الحرية التي يحصل عليها الأفراد كلما نفضت الحكومة يدها عن القيام بعمليات التنظيم والتوزيع في المجتمع .

٣- الحرية التربوية :

يذهب ديوي الى ان الحرية عامل أساسي وفعال في التربية ، فهي تساعد المتعلم وتمنحه الفرصة لإظهار إمكاناته وقدراته الخفية ، وبذلك يستطيع المعلم ان يكشف ما يحتاج اليه كل طفل من ان يجعل منه أنسانا كاملا ، " ان الأطفال في المدارس يسمح لهم بالحرية حتى يعلموا معناها ، ومدى الفائدة التي يحصلون عليها ، وان تسمح لهم بتنمية الصفات الايجابية ، صفات الخلق والإبداع " [٨٨]، وعلى المتعلم ان يدرك معنى وأهمية الحرية وما لها من فائدة وعلاقة مع كل ميادين الحياة . وعند توفير الحرية للمتعلم – الأطفال والتلاميذ – من قبل المعلم ، سوف يعزز ذلك من قوة الشخصية ونمائها ويتم ذلك من خلال الابتعاد عن الكبت Suppression ، وان كبت القدرات والقوى الطبيعية الموجودة في الإنسان يمنع من تحقيق كل خير وإصلاح فيها ، فالحرية تعطي الفرصة للمتعلم لكي يختبر بها دوافعه وميوله ويجربها على عالم الأشياء والمجتمع ، فيتمكن من كشف طبيعتها والتخلص من الضار منها ، وتنمية وتطوير دوافعه وميوله الأخرى التي تنفعه وتنفع الآخرين[٨٩].

وفي كتاب الخبرة والتربية Experience and Education يوضح ديوي طبيعة الحرية التربوية ، من خلال رفضه بأن تكون مرادفة لحرية الحركة او الفهم على انها تمثل الجانب الخارجي او البدني للنشاط ، وتأكيده على ان الحرية الوحيدة ذات الأهمية هي حرية الذكاء ، المرتبطة بالملاحظة والحكم والتي تستخدم في تحقيق أهداف لها قيمة في ذاتها ، الا انه يرى بعدم إمكان فصل الداخلي عن الخارجي ، اي حرية الفكر والرغبة والغرض عن النشاط البدني والجسماني ، وصورة عدم الفصل يمكن ان تتجسد من خلال القيود التي تفرض على العمل الخارجي عن طريق التنظيمات الثابتة

لمكان دراسة التلاميذ ، اذ لا يسمح لهم بالحركة إلا ضمن إشارات ثابتة معينة ، اذ كان هذا القيد عائقا أساسيا للحرية الفكرية والخلقية [٩٠].

وقد تكلم ديوي عن أهم الفوائد التي يمكن الحصول عليها عند ازدياد الحرية في مجال التربية ، فعند منح التلاميذ حرية اكبر من قبل المعلم يؤدي ذلك الى معرفتهم ، وكلما زادت الحرية أكثر نجم عن ذلك معرفة اكبر للمعلم عن التلاميذ ، فالطاعة والهدوء المفروضين قسرا لا تمكن التلاميذ من التعبير عن سجاياهم الحقيقية ، كما انه يفرض عليهم طابعا واحدا مصطنعا يؤخذ في المكان الأول من الاعتبار ، وهو أهمية الاحتفاظ بالمظاهر الخارجية لانتباه التلاميذ وأدبهم وطاعتهم ، لذلك فأن الأفكار والتخيلات والرغبات وكل أنواع النشاط سوف تنكشف للمعلم ، وهذا ما ينعكس على العملية التربوية وتطور إمكانات التلاميذ وقدراتهم الفردية ، والميزة الهامة الأخرى للحرية الخارجية المضافة تكون في طبيعة عملية التعلم ذاتها ، اذ ان حرية الحركة تكون وسيلة للمحافظة على الصحة البدنية والعقلية السوية[٩١]، وهذا ما أكده الإغريق حين تبنوا بوضوح العلاقة بين الجسم والعقل في القول المأثور " العقل السليم في الجسم السليم "[٩٢]، وبناءً على ذلك فأن الحرية التي يمنحها المربي او المعلم لسلوك التلميذ سوف تنعكس بشكل ايجابي عليه ، فتعمل على تعزيز قدراته الداخلية من نشاط عقلي وما يتضمنه من تفكير ونقد وتحليل وعمليات منطقية .

كما ان ديوي يرفض الحرية ان كانت غاية في حد ذاتها ، ففي نظره سوف تكون حرية غير منضبطة ولا منظمة وغير خاضعة لأي ضوابط او محددات ، وعندها سوف تنتفي قيمتها الحقيقية وتصبح دون جدوى ، " فتكون عندئذ معول هدم لضروب النشاط التعاوني المشترك وهو المصدر الطبيعي للنظام ، وان التحرر من التقييد إنما يُحمد اذا كان وسيلة الى حرية تكون بمثابة قوة لتحديد الأهداف والحكم السليم وتقدير قيم الرغبات على أساس ما يترتب على العمل بمقتضاها من نتائج ، قوة تكسب القدرة على انتقاء الوسائل وتوجيهها لدفع الأهداف المختارة الى العمل " [٩٣]. وعلى هذا الأساس فلا بد ان تكون الحرية منظمة ، وليست عشوائية تسمح بالتسيب والانفلات وخارجة عن كل

الضوابط ، " الحرية تدل على موقف عقلي اكثر مما تدل على فقدان القيود التي تقيد الحركات الخارجية ، على انه ينبغي ان نعتبر كذلك ان هذه الصفة العقلية لا يمكن ان تنمو اذا لم يتيح للفرد قدر معقول من الحركة يعينه على الاكتشاف والتجريب والتطبيق "[٩٤].

نتائج البحث :

١- مرت مشكلة الحرية بالعديد من المراحل التاريخية المرتبطة بالفكر الفلسفي والاجتماعي والسياسي والديني والاقتصادي ، وقد اختلف في تفسيرها وتأويلها الفلاسفة والمفكرون ورجال الدين ، ابتداءً من شعور الإنسان على انه الكائن الوحيد الذي يتمتع بالحرية وإحساسه بالمسؤولية تجاه نفسه وتجاه الآخرين ، وانتهاءً بتجلياتها وتمظهراتها في المجتمعات الإنسانية التي لا تنفك عن الخوض في خضم هذه المشكلة ، ومحاولة إدراك وفهم كل معانيها والغوص في أعماق مضامينها .

٢- أخذت الحرية جانباً كبيراً من اهتمام الفلاسفة البراغماتيين الأمريكان والبريطانيين على حدٍ سواء ، اذ انصب اهتمامهم الأكبر على الخوض في مشكلة الحرية من خلال مفهوم الحتمية ، وذلك من خلال التوفيق بينهما كما اعتقد بذلك شيلر ، اذ وجد ان هنالك بعض الممكنات يمكن تحديدها وأخرى لا يمكن تحديدها . اما جيمس فقد رفض هذا المبدأ رفضاً قاطعاً وأكد بأن الحرية تتحقق في عالم يخضع لمبدأ اللاحتمية ، عالم يتصف بالجدة والتغير ويسير دائماً نحو التعدد والصيرورة ، بينما العالم الحتمي فأنه واحدي يتصف بالثبات والضرورة .

٣- يتضح الأثر الكبير الذي تركه جيمس على فلسفة جون ديوي في مجال الحرية من خلال معالجة هذه المشكلة واقعياً ، وإيمانه بتحققها في عالم لا تحكمه الضرورة ، عالم ذو إمكانيات منفتحة لا يخضع لأي صورة من صور الحتمية ، رغم ذلك إلا إن ديوي استطاع ان يذهب إلى أبعد من ذلك ، من خلال رصدها في مجالات وميادين متنوعة ممكن ان تكون انعكاساً لواقعية أكثر ، فهو يعتقد ان حقيقتها تتجلى في الظواهر الاجتماعية والولوج في معترك المجتمع وتحدي كل الصعاب التي تواجهه .

٤- الحرية التي يؤمن بها ديوي لا يمكن أن تخرج عن الطابع العام لفلسفته ، اذ نجدها مشروطة بعناصر ذاتية وموضوعية متفاعلة فيما بينها ، تمثل الإنسان وبيئته الطبيعية والاجتماعية ، يتم من خلال الجهد والعمل الذي تكفله الظروف في كثير من الأحيان سعياً لتحقيق الأفضل ، والذي يبنى على أساس التفكير الذي يعتبره ديوي مفتاح الحرية لأنه يرسم ويخطط ويتفاعل مع كل عمل يسعى إليه الإنسان ، فهو في تفاعل مستمر مع بيئته الطبيعية والاجتماعية محققاً حريته وإمكاناته في هذا العالم ، ومعنى الحرية الحقيقية مرتبط بعلاقة الإنسان و ارتباطه بالعالم .

٥- يعتقد ديوي ان الحرية الفردية هي حرية طبيعية تسبق كل أنواع الحريات الأخرى وتتقدم عليها ، وهي حق لابد ان يمتلكه كل فرد من أفراد المجتمع ، فمن خلالها يمكن ان يحقق جميع الحريات الأخرى ، لأنها القوة التي ينطلق منها الأفراد معبرين عن إرادتهم وما يطمحون اليه ، وقد ارتبطت الحرية الفردية بالتاريخ السياسي للدول وذلك من خلال المطالبة بتحقيق العدالة للأفراد والمطالبة بجميع حقوقهم المشروعة .

٦- يؤكد ديوي بأن الحرية الفردية لا تتحقق الا في ظل مجتمع يعمل على تنظيمها وحمايتها ، لتشمل كل الأفراد بشكل يضمن لهم تحقيق حرياتهم ، ومهمة هذا التنظيم تقع على عاتق سلطة الدولة وما تفرضه من قوانين وتشريعات ، التي تكون بدورها منتخبة من قبل الشعب ، لذلك يكون الفرد عاجز عن تحقيق حريته كفرد منعزل عن مجتمعه ، والمعنى الحقيقي للحرية هي أن تكون حرية اجتماعية ينظر إليها من خلال المجتمع وتركيبته ، وفي تفاعل الأفراد بعضهم مع البعض الأخر.

٧- يجب ان ‘يمنح الإنسان الحرية منذ السنوات الأولى من حياته ، لأنها العامل الأهم في تنمية قدراته وتطوير كل إمكانات الخلق والإبداع في شخصيته ، والحرية تشمل ما هو جسماني والمتمثل بالحركة والعمل والنشاط الجسدي ، كما تشمل ما هو عقلي والذي يمثل الرغبات والأفكار والتخيلات وغيرها من العمليات والنشاطات العقلية الأخرى ، والحرية الفاعلة لابد ان تكون نابعة من تفاعل هذين العنصرين مع بعضهم .

هوامش ومصادر البحث :

١- هنالك اختلاف في اللغة الانكليزية بين كلمتي Freedom و Liberty ، إذ تشير الأولى للمفهوم المطلق للحرية ، بينما تدل الثانية على الحرية المرتبطة بالسياسة أو الاقتصاد أو الدين ...الخ ، لذلك فهي تعطي معنى تحرر بينما الأولى فمعناها حرية .

٢- مسعود ، جبران ، الرائد (معجم لغوي عصري رتبت مفرداته وفقاً لحروفها الأولى)، ط٧ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٢ ، ص ٢٩٩ .

٣- صليبا ، جميل ، المعجم الفلسفي ، ج١ ، ط١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٤٦١ .

٤- أنوود ، ميخائيل ، معجم مصطلحات هيجل ، ت : إمام عبد الفتاح إمام ، المركز المصري العربي ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ص ٢١٧ .

٥- إبراهيم ، زكريا ، مشكلة الحرية (مشكلات فلسفية معاصرة) ، ط٢ ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١٧ .

٦- المصدر السابق ، ص ١٨ .

٧- الحتمية : مذهب فلسفي يرى بأن جميع حوادث الكون - وخصوصا الأفعال الإنسانية – مترابطة ترابطا محكما ، تكون فيه الأشياء ما تكونه في لحظة معينة من الزمن ، بحيث لا يكون لكل لحظة من اللحظات السابقة أو اللاحقة إلا حالة واحدة تلاءم حالتها في تلك اللحظة المعينة . لالاند ، اندرية ، موسوعة لالاند الفلسفية ، ت : خليل احمد خليل ، م١ ، ط١ ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ص ٢٦٨ . كذلك ينظر: فؤاد كامل وآخرون ، الموسوعة الفلسفية المختصرة ، دار القلم ، بيروت ، (د ، ت) ، ص ١٨١ .

٨- زياده ، معن ، الموسوعة الفلسفية العربية ، م١ ، ط١ ، معهد الإنماء العربي ، ١٩٨٦ ، ص ٣٦٥ .

٩- المصدر السابق ، ص ٣٦٥ .

١٠- لالاند ، اندريه ، موسوعة لالاند الفلسفية ، ت : خليل احمد خليل ، م٢ ، ط٢ ، منشورات عويدات ، بيروت ، ٢٠٠١ ، ص ٧٢٨ .

١١- الموسوعة الفلسفية العربية ، م١، ص ٣٦٦ .

١٢- لالاند ، اندريه ، موسوعة لالاند الفلسفية ، م٢ ، ص ٧٢٨ .

١٣- إبراهيم ، زكريا ، مشكلة الحرية ، ص ١٩ .

١٤- المصدر السابق ، ٢١ ،٢٢ .

١٥- بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ، ج١ ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٤٥٨

١٦- الموسوعة الفلسفية العربية ، م١ ، ص ٣٦٦ .

١٧- بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ،ج١ ، ص ٤٥٩ .

١٨- بدوي ، عبد الرحمن ، أرسطو ، ط٢ ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

١٩- جلسون ، ايتين ، الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى ، ت : إمام عبد الفتاح إمام ، ط٣ ، التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص ٤٠٢ .

٢٠- ماثيو ، جاريت ، أوغسطين ، ت : أيمن فؤاد زهري ، ط١ ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٣ ، ص ١٦٧ .

٢١- حافظ ، اشرف ، الجبر والاختيار في الفكر الإسلامي (مشكلة وحل) ، ط١ ، دار النخلة للنشر ، بنغازي ، ١٩٩٩ ، ص ٤١ .

٢٢- حسيبة ، مصطفى ، المعجم الفلسفي ، ط١ ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٩ ، ص ٥١ .

٢٣- بلدي ، نجيب ، ديكارت (نوابغ الفكر الغربي) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٢١٢ . نقلا عن كتاب رينه ديكات مبادئ الفلسفة .

٢٤- كانط ، عمانؤيل ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، ت : عبد الغفار مكاوي ، ط١ ، منشورات الجمل ، كولونيا – ألمانيا ، ٢٠٠٢ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

٢٥- الديمومة : للديمومة معان عديدة ترتبط بمفهوم الزمان ، فهي تطلق على الزمان المحدود والممدود ، كما أنها تطلق على جزء من الزمان المطلق فتكون زمان فعل أو زمانا فاصلا بين فعلين ويكون الزمان المطلق محيطا بها إحاطة الكل بالجزء ، وقد ارتبط مفهوم الديمومة بفلسفة برجسون ارتباطا وثيقا واتخذ معنى آخر يختلف عما سبقه ، لأنه يمثل الزمان النفسي الداخلي الذي يتعاقب بالذات ، كما هو محسوس مباشرة في حياة العقل أو الروح ، لذلك تكون ديمومة معاشة وحقيقية او تسمى ديمومة محضة لأنها مستقلة عن المكان . صليبا ،

جميل ، المعجم الفلسفي ، ج١ ، ص ٥٧١ . كذلك : لالاند ، اندريه ، موسوعة لالاند الفلسفية ، م١، ص ٣٠٧ .

٢٦- الشاروني ، حبيب ، بين برجسون وسارتر (أزمة الحرية) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٣٠ ، ٣١ .

٢٧- برجسون ، هنري ، بحث في المعطيات المباشرة للوعي ، ت : الحسين الزاوي ، ط١ ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص ١٥٩ . كذلك ينظر: إبراهيم ، زكريا ، برجسون (نوابغ الفكر الغربي) ، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٧٣ – ١٠٤ .

٢٨- سارتر ، جان بول ، الوجود والعدم (بحث في الانطولوجيا الظاهراتية) ، ت : عبد الرحمن بدوي ، ط١ ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٧٠٢ ،٧٠٣ .

٢٩- سارتر ، جان بول ، الوجودية مذهب أنساني ، ت : عبد المنعم الحفني ، ط١ ، الدار المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٢٦ .

٣٠- المصدر السابق ، ص ١٦ ، ١٧ .

٣١- الشاروني ، حبيب ، بين برجسون وسارتر (أزمة الحرية) ، ص ١٢٢ .

٣٢- إبراهيم ، زكريا ، دراسات في الفلسفة المعاصرة ، ط١ ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٤٤ .

٣٣- التفاؤل الخلقي : عقيدة ترى بان العالم ليس خيرا بذاته او شرا بذاته ، فهو لا يخلو من الشر مطلقا ولا من الخير، إلا انه في طريق الاكتمال والتحسن ، وهذا ما امن به وليم جيمس ، واتخذ موقفا وسطا بين مذهبي التفاؤل والتشاؤم ، وذهب إلى أن الإنسان بإمكانه أن يغير العالم من خلال اعتقاده وسلوكه ، فإذا امن بالتحسن والتقدم والأمل والقوة واستشراف مستقبل مشرق وسلك وفق هذا الإيمان ، فأن بإمكان الإنسان أن يحقق الخير دائما وان يغير ويحسن صورة العالم ، ويثبت أن له حرية واختيار فيما يعتقد ويسلك .

٣٤- زيدان ، محمود ، وليم جيمس (نوابغ الفكر الغربي) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٨٧ .

35 - James , William , Textbook of Psychology , Macmillan and CO. 1Td , London , 1907 , P, 237 .

٣٦- زيدان ، محمود ، وليم جيمس ، ص ١٨٨ .

٣٧- إبراهيم ، زكريا ، دراسات في الفلسفة المعاصرة ، ص ٤٥ .

٣٨- جيمس ، وليم ، بعض مشكلات الفلسفة ، ت : محمد فتحي الشنيطي ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ، د . ت ، ص ١٢٠ .

٣٩- اللاحتمية : وهي اعتقاد مناقض للحتمية ويرمي الى نفيها في الظواهر الأخلاقية والطبيعية ، فلا يسلم باطراد العلاقة بين الظواهر وقوانينها ، ويفسح المجال للحرية بحيث تصبح الإرادة علة أولى للعمل الأخلاقي ، وهي تقسم الى قسمين رئيسيين : ١- اللاحتمية الذاتية Indeterminism subjective وهو عجز العقل عن التنبؤ بحوادث الطبيعة لعجزه عن الإحاطة بأسبابها ونتائجها ، رغم إيمانه بخضوع الطبيعة لنظام ثابت ، لكنه يعترف في الوقت نفسه بتعذر الوصول الى معرفة هذا النظام ، ٢- اللاحتمية الموضوعية Indeterminism objective وهي نفي الحتمية في الظواهر الطبيعية والإنسانية نفيا مطلقا ، فإذا كان العقل عاجزا في هذه الحالة عن التنبؤ ، فمرد ذلك إلى أسباب موضوعية لا إلى أسباب ذاتية . صليبا ، جميل ، المعجم الفلسفي ، ج٢، ط١، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ . كذلك ينظر: أبو رغيف ، رحيم ، الدليل الفلسفي ، ج٣، ط١، دار روافد بيروت ، ٢٠١٥ ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

٤٠- المصدر السابق ، ص ١٢١ .

٤١- التجريبية الأصيلة : هي الهيولى المحايدة أو المادة السابقة على الفكر والمادة ، وبذلك يرد كل من الأفكار والأشياء إلى منبع واحد صدرا عنه هو التجربة الأصيلة ، عندما نشاهد التجربة التي تقع أمام حواسنا في زمان ومكان معينين ، إذ تؤثر وتتأثر بمحيطها من أشياء حينها نطلق على هذه التجربة جزءً من العالم الطبيعي ، وعندما تصبح هذه التجربة عينها تخيلا أو تصورا أو انفعالا أو ذكرى ، نسميه أجزاء من العالم النفسي .

٤٢- الشنيطي ،محمد فتحي ، وليم جيمس ، ط١ ، دار الحمامي للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ١٥٨ .

٤٣- المذهب الإنساني : هو الاسم الذي أطلقه فرديناند شيلر على مذهبه في مؤلفاته ،الأول المذهب الإنساني عام ١٩٠٣ والثاني دراسات في المذهب الإنساني عام ١٩٠٧ ، وفكرته الأساسية تتركز حول ان الإنسان على بينة تامة ودراية واعية بالمشكلات الفلسفية التي تواجه كائنات بشرية تبذل غاية جهدها لتفهم عالم التجربة الإنسانية ، وهي فلسفة تهدف الى إضفاء الطابع

الإنساني على الفكر والكون بعد ان هيمنة عليهما العلوم المادية والطبيعية زمنا طويلا ، فتكون مكانة الصدارة للإنسان عقلا وحسا وإرادة ووجدانا ، وهذا ارتبط بحكمة بروتاغوراس الشهيرة وهي " الإنسان هو مقياس كل الأشياء " ، اذ من خلالها ربط بين المذهب البراغماتي والإنساني ، فالحقيقة اولا مرتبطة بما للقضية من نتائج عملية مفيدة وثانيا ان تكون مرتبطة بالطبيعة الإنسانية وبحاجاتها الأساسية .

٤٤- أمين ، عثمان ، شيلر (نوابغ الفكر الغربي) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٨٤ .

45 - F.C.S , Schiller , Studies in Humanism , 1st edition ,the Macmillan company , London , 1907 , P . 391 .

46 - Ibid, P. 394 .

47- Ibid , p.p. 407- 408 .

٤٨- أمين ، عثمان ، شيلر ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

49 - F.C.S , Schiller , Studies in Humanism , P. 409 .

٥٠- تناول ديوي مشكلة الحرية في عدد من مؤلفاته كان أهمها كتاب " الأخلاق " Ethics الذي وضعه مع زميله في جامعة شيكاغو الأستاذ جيمس تافتس عام ١٩٠٨ ، وكتاب ثاني جاء بعنوان " الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني " Human Nature and Conduct الذي نشره عام ١٩٢٢ ، إما الكتاب الثالث فهو " الفلسفة والحضارة " Philosophy and Civilization عام ١٩٣١ ، وأخيرا الكتاب الرابع الذي نشر عام ١٩٣٩ الذي جاء بعنوان " الحرية والثقافة " Freedom and Culture .

٥١- بولر ، بول ، الحرية والقدر في الفكر الأمريكي من ادواردز إلى ديوي ، ت : إسماعيل كشميري ، مكتبة الانكلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٢٧٩ .

٥٢- ديوي ، جون ، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني ، ت : محمد لبيب النجيحي ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٣١٧ .

٥٣- الاهواني ، أحمد فؤاد ، جون ديوي (نوابغ الفكر الغربي) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٥٩ .

٥٤- ديوي ، جون ، الحرية والثقافة ، ت : أمين مرسي قنديل ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١ .

٥٥- المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

٥٦- جعفر ، نوري ، جون ديوي (حياته وفلسفته) ، مطبعة الزهراء ، بغداد ، ١٩٥٤ ، ص ٦٦ .

٥٧- ديوي ، جون ، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني ، ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

٥٨- الذكاء : يمثل الذكاء في نظر ديوي جميع العمليات التي يؤديها الإنسان لتعديل الظروف ، وهي طرائق الملاحظة والتجريب والتفكير والبرهان ، لذلك فهو يتضمن كل توجيه يحصل عليه من الأفكار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة (رمزية) على حد سواء ، ولم يقصرها على مجال العلوم التطبيقية بل أراد بها ان تشمل العلوم النفسانية أيضا . ينظر: ديوي ، جون ، تجديد في الفلسفة ، ت : أمين مرسي قنديل ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، (د . ت) ، ص ١٤ . كذلك ينظر:

Werkmeister , A history of Philosophy idea in American , the Ronald press company , New York , 1949 , P. 558 .

٥٩- ديوي ، جون ، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني ، ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

٦٠- المصدر السابق ، ص ٣١٩ .

٦١- المصدر السابق ، ص ٣١٩ .

٦٢- المصدر السابق ، ص ٣٢٢ .

٦٣- المصدر السابق ، ص ٣٢٣ .

٦٤- بولر ، بول ، الحرية والقدر في الفكر الامريكي من ادواردز الى ديوي ، ص ٢٩٨ .

٦٥- المصدر السابق ، ص ٢٩٨ .

٦٦- المداولة الفكرية : هي تجربة للوصول إلى حقيقة المسالك المختلفة لما تستطيع من عمل ، لأجل بناء ارتباطات مختلفة لعناصر مختلفة من العادات والنوازع والدوافع لمعرفة ما ينتج عن استخدامها من عمل ، لكن كل هذا في نظر ديوي لا يحدث في الحقيقة وإنما هو تمرين في الخيال . ينظر: ديوي ، جون ، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني ، ص ٢١٠ .

٦٧- ديوي ، جون ، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني ، ص ٣٢٣ .

٦٨- المصدر السابق ، ص ٣٢٤ .

٦٩- عبد القادر ، فرج وآخرون ، معجم علم النفس والتحليل النفسي ، ط١ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (د : ت) ، ص ٢١٥ .

٧٠- ديوي ، جون ، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني ، ص ٢٦٦ .

٧١- المصدر السابق ، ص ٣٢٤ .

٧٢- المصدر السابق ، ص ٣٢٤ .

٧٣- بولر ، بول ، الحرية والقدر في الفكر الأمريكي من ادواردز إلى ديوي ، ص ٢٨٩ .

٧٤- ديوي ، جون ، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني ، ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

٧٥- رودولف روكر (Rudollf Rocker) : (١٨٧٣- ١٩٥٨) كاتب وناشط في الفوضوية النقابية ، كان يعتقد بأن فكر المدارس الفوضوية يمثل أساليب مختلفة في الاقتصاد ، والموضوع الرئيسي لها هو تأمين الحرية الشخصية والاجتماعية للفرد ، أهم أعماله هي : القومية والثقافة ، الفوضوية النقابية : النظرية والتطبيق ، رواد الحرية الأمريكية ، مأساة اسبانيا ، الفوضوية والفوضوية النقابية ، سنوات لندن .

٧٦- غيران ، دانيال ، الأنا ركبة من النظرية الى التطبيق ، ت : عومرية سلطان ، ط١ ، تنوير للنشر والإعلام ، القاهرة ، ٢٠١٥ ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

٧٧- زيادة ، معن ، الموسوعة الفلسفية العربية ، م١ ، ص ٣٦٦ . ولتفاصيل اكثر يمكن الرجوع الى كتاب جون ستيوارت مل ، عن الحرية ، ت : هيثم كامل الزبيدي .

٧٨- تنسجم هذه الفكرة مع ما دعا إليه الفيلسوف الألماني كارل ماركس في ان للإفراد حق في الثورة على الفئة الحاكمة ، وإنشاء حكومة يديرها ممثلون عن الجماهير والطبقات المحرومة ، فيما اذا كانت الحكومة السابقة ظالمة وقائمة على أساس مصالحها وسلب جميع الحقوق من عامة الشعب .

٧٩- جعفر ، نوري ، جون ديوي (حياته وفلسفته) ، ص ٥٥ .

٨٠- ديوي ، جون ، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني ، ص ٣٢ .

٨١- الاهواني ، احمد فؤاد ، جون ديوي (نوابغ الفكر الغربي) ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

٨٢- ديوي ، جون ، إعادة البناء في الفلسفة ، ت : احمد الأنصاري ، ط١ ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٠ ، ص ١٧٦ .

٨٣- جعفر ، نوري ، جون ديوي ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

84- Problem of Men , John Dewey , philosophical library , New York , 1946 , P. 100 .

٨٥- ديوي ، جون ، الفردية قديما وحديثا ، ت : خيري حماد ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٨١ .

٨٦- ينظر: جعفر ، نوري ، جون ديوي ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

٨٧- المصدر السابق ، ص ٦٩ .

٨٨- ديوي ، جون ، مدارس المستقبل ، ت : عبد الفتاح المنياوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٣٣٤ .

٨٩- منتهى عبد جاسم ، فلسفة التربية عند جون ديوي ، الحوار المتمدن ، شبكة المعلومات (الانترنت) ، www.ahewar.org /debat/show.art.asp?uid=259624 .

٩٠- ديوي ، جون ، الخبرة والتربية ، ت : محمد رفعت رمضان ونجيب اسكندر ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، (د. ت) ، ص ٧٣ .

٩١- المصدر السابق ، ص ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ .

٩٢- حكمة قديمة ينسبها البعض الى الشاعر الروماني جوفينال ، وينسبها البعض الأخر الى الفيلسوف اليوناني طاليس ، وقد جاءت هذه العبارة في مطلع قصيدة ترجم النص كالأتي : (صل من اجل عقل سليم في جسم سليم) ، والمعنى المأخوذ من هذه العبارة هو مدى أهمية العلاقة بين العقل والجسم ، وتأثير الواحد منهما على الأخر ، فهي علاقة تكاملية وتفاعلية من حيث ان الجسد يتأثر بما يقع على العقل من مؤثرات خارجية ، وسلامته تؤثر على سلامة العقل ، وبالتالي فأن بقائه سليما معافى سوف يحافظ على صحة العقل سليما أيضا .

٩٣- ديوي ، جون ، الخبرة والتربية ، ص ٧٧ .

٩٤- ديوي ، جون ، الديمقراطية والتربية ، ت : متي عقراوي و زكريا ميخائيل ، ط١ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ٣١٣ .